

اتجاهات التفسير ومدارسه في الجزائر

الأستاذ: محمد لمين بوروية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يعتبر علم التفسير من العلوم المهمة التي تخدم كتاب الله Y وتساعد على فهم آياته وتدبرها، وصلة الجزائريين بالقرآن صلة وطيدة، تبدأ من الفتح الإسلامي الأول لبلاد المغرب⁽¹⁾. وعلماء الجزائر كغيرهم من علماء الأقطار الإسلامية الأخرى قد ساهموا في إثراء علم الثقافة الإسلامية بشكل عام، والشرعية بشكل خاص، فلم يتركوا فناً من الفنون إلا ودرسوه وتعاطوه بينهم؛ من قراءات وتفسير وحديث وفقه وتوحيد وأدب وشعر ونحو وتاريخ. وظهرت لهم في مختلف هذه العلوم مصنفات ومؤلفات ضاهت مثيلاتها بالحواضر الإسلامية في المشرق والأندلس.

وكان لكثير من الأعلام الجزائريين أثر لا يُنكر في خدمة علم التفسير، سواء كان في الجزائر، أو في الأقطار المغربية المجاورة، في مصر وبغداد والشام والحجاز. وقد تنوعت عطاءات العلماء الجزائريين وجهودهم في هذا الميدان الرحب والعلم الجليل، فمنهم من كرس حياته لتعليم كتاب الله Y وتفسير آياته وبيان مراد الله تعالى منه بحسب ما أوتي من علم وفهم، ومنهم من كان يختار آية منه بما يُناسب موضوع درسه أو خطبته ثم يأخذ في بيان معانيها ومقاصدها، ومنهم من جرّد قلمه للتأليف والتصنيف، ومنهم من جمع بين هذا وذاك. وبمجموع هذه الجهود والعطاءات التي جاءت متنوعة ومختلفة المشارب شكلت لنا مجموعة من الاتجاهات والمدارس بحسب طبيعة كل منها.

ومن هاهنا أردت في هذا البحث أن أسهم ولو بالقليل في إبراز أهم اتجاهات علم التفسير ومدارسه لدى علمائنا الجزائريين من بداية ظهوره في القرن الثاني للهجرة إلى عصرنا الحاضر؛ فأقول وبالله التوفيق:

(1) انظر: فتوح البلدان للبلاذري: ص 227، والإستقصا لأخبار المغرب الأقصى للناصري: 92/1 و 141/1، ورياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية للمالكي: 98-60/1، و 99-151.

أعني باتجاهات التفسير ومدارسه في الجزائر تلك الاتجاهات والمسالك التي سلكها المفسرون الجزائريون في تفاسيرهم بحسب معتقداتهم ومذاهبهم وانتماءاتهم وتوجهاتهم الفكرية المتنوعة. من خلال تتبعي لحركة التفسير وأعلامه في الجزائر من النشأة إلى عصرنا الحاضر، وذلك من خلال المصادر والمراجع التي تناولت التعريف بالأعلام المفسرين الجزائريين، أو من خلال تتبع كتبهم المصنفة في التفسير عبر العصور⁽¹⁾، يمكن أن نلخص أهم اتجاهات التفسير التي ظهرت في هذه البلاد المحروسة إلى خمسة اتجاهات، وهي:

1- الاتجاه الأثري السني.

2- الاتجاه الإباضي.

3- الاتجاه الصوفي.

4- الاتجاه الشيعي الباطني.

5- الاتجاه الإصلاحية.

وفي ما يأتي التعريف بكل اتجاه من الاتجاهات السابقة مع ذكر شيء من تاريخه ومقوماته وأهم أعلامه:

أولاً: الاتجاه الأثري السني

ونقصد بهذا الاتجاه المفسرين الجزائريين الذين سلكوا المنهج الأثري في التفسير، وهو ما يعرف بالتفسير بالمأثور، وقد اتفق أهل التفسير على أن المراد به:

ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نقل عن النبي '، وما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نقل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم⁽²⁾.

و قد اختلفوا فيما نقل عن التابعين رحمهم الله هل هو من التفسير بالمأثور أو هو من التفسير بالرأي؟ ومما لا شك فيه أن أصح طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن ثم تفسيره بالسنة، ثم تفسيره بأقوال الصحابة، وإلى هذه الدرجات ينقسم التفسير بالمأثور.⁽³⁾

(1) مثل: المفسرون الجزائريون عبر القرون لمحمد اسكندر، ومعجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر لعادل نويهيض، وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوي.

(2) التفسير والمفسرون للذهبي: 1/112.

(3) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر لفهد الرومي: 2/519.

وقد أولى علماء التفسير من السلف التفسير بالمأثور بأنواعه السالفة عناية كبيرة، فأوردوا في تفاسيرهم الكثير والكثير منها وزادوا عليه أحياناً ببيان آرائهم بالترجيح فيما فيه احتمال.

وقد ظهرت بكورة هذه المدرسة الأثرية في هذا البلد الحبيب منذ بداية دخول الإسلام إليه، على يد الفاتح الأول له عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه ومن معه من الصحابة والتابعين، إذ تشرفت المنطقة بدخول علماء من الصحابة والتابعين عرفوا بتضلّعهم في التفسير أمثال عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وتردد بعضهم عليها، وكان لهذا التردد أثر كبير في نشر العلم، وذلك لأن هؤلاء قد عرفوا البلاد وطبائع أهلها، فهم أقدر على معرفة مداخلها وأصلح الطرق لنشر العلم، ولا شك أنه أصبح لهم بها أصحاب وتلاميذ.⁽¹⁾

ثم ازدادت قوة وازدهارا لما رجع أبناء هذا الوطن ممن كان في القيروان والمشرق العربي والأندلس يطلب العلم على سادات المدرسة وكبارها كعكرمة وأسد بن الفرات ويحيى بن سلام والمهدوي ومكي بن أبي طالب⁽²⁾

ومن علماء التفسير الجزائريين الذي سلكوا هذا المنهج - أي من سلكوا منهج التفسير بالمأثور في تفاسيرهم - كثير، وذلك لأن هذا المسلك هو الأسلم في فهم معاني كلام الله تعالى وشرحها، كما أن غالب المفسرين كانوا على المذهب المالكي وهو المذهب السائد في عموم بلاد المغرب العربي عموماً والجزائر خاصة، ومن أصوله ومصادر التشريع فيه الاعتماد على الكتاب والسنة والإجماع والقياس فلذلك أولّوا الاهتمام بالكتاب والسنة وما اتصل بهما في فهم كتاب الله وسنة نبيه^ﷺ، ولذلك كان أغلب التفاسير تنحو منحى الاتجاه الأثري، وأما باقي الاتجاهات الأخرى فكان أصحابها في الغالب متأثرين بالمسالك العقدية التي عليها أقوامهم والاتجاهات الفكرية السائدة في بيئتهم الاجتماعية، أو لهم في ذلك مصالح وغايات معينة يريدون تحقيقها من خلال إتباعهم لذلك الاتجاه والمسلك.

ومن أصحاب التفاسير الذين سلكوا الاتجاه الأثري في تفسير كتاب الله تعالى الإمام عبد الرحمن الثعالبي - من القرن التاسع هجري - في تفسيره الجواهر الحسان⁽³⁾ الذي يعتبر اختصاراً وعصارَةً لتفسير الإمام ابن عطية رحمه الله، ويعتبر في الحملة تفسيرا أثريا لكن ذا نزعة صوفية وعظمية يهتم بالقضايا الاجتماعية، وكذلك الشيخ أبو بكر جابر الجزائري - من العصر الحديث - في تفسيره أيسر التفاسير، والتفسيران لهما الأثر الواضح في المكتبة التفسيرية.

(1) التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا لطرهوني : 498/2.

(2) راجع التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا لطرهوني : 500/2.

(3) وقد اعتبره بعضهم - مثل طرهوني في التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا - من قسم التفسير بالرأي الحمود لاشتماله على أقوال وآراء للثعالبي وبعض تصوفه.

ثانيا: الاتجاه الإباضي

ونقصد به المفسرين الذين قاموا بتفسير القرآن الكريم وفق المنهج الإباضي، أي وفق أسس وأصول المذهب الإباضي عقيدة وفقها، ونسبة الإباضية ترجع إلى عبد الله بن أباض بن تيم اللات بن ثعلبة من بني مرة بن عبيد رهط الأحنف بن قيس آل مقاعس التميمي، كان من أهل العراق جاء إلى الإمام جابر بن زيد لأخذ العلم عنه وكان يناظره في أموره وفي مهماته الدينية وفيما يأتي منها وما يذكر⁽¹⁾.

أما مركز المذهب الإباضي فقد كان في البصرة حيث نشأ ثم اتصل بعُمان ثم المغرب (أي الجزائر) حيث قامت له دولة، كما امتد إلى اليمن وإلى خراسان وإلى مصر وإلى الجزيرة العربية.⁽²⁾

وقد ظهرت هذه المدرسة - أي المدرسة الإباضية - في الجزائر منذ القرن الثاني هجري على يد عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية، فبعد فراره سنة 144هـ من القيروان بعد ثورته على أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري - زعيم الإباضية بإفريقية - وقتله خرج بأهله وتوجه إلى تيهرت بالمغرب الأوسط، وعندما سمع الإباضيون بمقره قصدوه من مختلف الجهات وأقاموا معه مدينة تيهرت التي أصبحت فيما بعد عاصمة الدولة الرستمية، ثم بايعوه بالإمامة سنة 160هـ⁽³⁾.

يقول د. فهد الرومي متحدثا عن إنتاج المدرسة الإباضية في التفسير⁽⁴⁾: "ظاهرة بارزة في تاريخ الإباضية العلمي هي قلة المؤلفات، ليس في العصر الحديث فحسب بل في القدم أيضاً وتبرز هذه الظاهرة أكثر في إنتاجهم في تفسير القرآن الكريم؛ إذ لا يكاد يذكر لهم من تفسير سوى تفاسير ثلاثة في القدم وثلاثة في العصر الحديث".

ثم قال: "ومن الثلاثة القديمة لا يوجد إلا تفسير واحد في أربعة مجلدات ومؤلفه هو هود بن محكم وتداوله بين الإباضية في المغرب، أما الباقي فمفقود وهما تفسير عبد الرحمن بن رستم الفارسي من القرن الثالث، وتفسير يوسف بن إبراهيم الوجيهاني من أهل القرن السادس الهجري"⁽⁵⁾.

ثم قال: "وفي العصر الحديث لا تجد إلا ثلاثة تفاسير، وتعجب إذا عرفت أنها كلها لمؤلف واحد هو يوسف بن إبراهيم أطفيش، وأن المطبوع من هذه الثلاثة إثنان، أما الثالث فلم يتمه مؤلفه ولم يُطبع، أما المطبوعان فهما:

(1) انظر: سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر: ص 35.

(2) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر لفهد الرومي: 281/1.

(3) المفسرون الجزائريون عبر القرون لاسكندر: 33/1 - 36.

(4) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر لفهد الرومي: 301/1، وانظر: التفسير والمفسرون للذهبي وسؤاله لإبراهيم

أطفيش: 232/2.

(5) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر لفهد الرومي: 301/1.

- هيمان الزاد إلى دار المعاد يقع في ثلاثة عشر مجلد.
 - تيسير التفسير ويقع في سبع مجلدات.
 وأما الذي لم يُطبع ولم يتمه مؤلفه فهو تفسير " داعي العمل ليوم الأمل " .
 قلت: ويضاف إلى التفاسير الإباضية المطبوعة في العصر الحديث تفسير آخر وهو تفسير الشيخ إبراهيم بيوض المسمى في رحاب القرآن يقع في ثمانية مجلدات.

ثالثًا: الاتجاه الصوفي

ونعني به تلك المجموعة من المفسرين الذين سلكوا مسلك الصوفية في تفسير القرآن الكريم، وقد قسم العلماء التفسير الصوفي إلى قسمين: صوفي نظري وصوفي فيضي أو إشاري.

أ- تفسير صوفي نظري:

وهذا الاتجاه هو الذي قال عنه محمد حسين الذهبي:
 "أن التفسير الصوفي النظري يشرح بالقرآن - في الغالب - عن هدفه الذي يرمي إليه! يقصد القرآن هدفًا معينًا بنصوصه وآياته، ويقصد الصوفي هدفًا معينًا بأبحاثه ونظرياته. وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد، فيأبى الصوفي إلا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده، إلى ما يقصده ويرمي إليه، وغرضه من هذا كله: أن يروِّج لتصوفه على حساب القرآن، وأن يقيم نظرياته وأبحاثه على أساس من كتاب الله، وبهذا يكون الصوفي قد خدّم فلسفته التصوفية ولم يعمل للقرآن شيئًا، اللهم إلا هذا التأويل الذي كله شر على الدين وإلحاد في آيات الله..."⁽¹⁾.

فهو تفسير قائم على أساس نظريات الفلاسفة الذين بحثوا في الطبيعة وفي ما وراء الطبيعة، كما يقوم على نظريات فاسدة تذهب بالدين من أساسه، كنظرية وحدة الوجود وأشباهها من النظريات الفاسدة نقلًا وعقلًا، ومثل هذا التفسير لم يقبله العلماء المتقدمون والمتأخرون.

والحمد لله أننا لم نجد من ألف في هذا اللون من التفسير كتابًا خاصًا يتتبع فيه القرآن آية آية كما ألف في ألوان التفسير الأخرى، وكل ما وجد من ذلك هو نصوص متفرقة في كتب ومؤلفات بعض الصوفية من أمثال ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية وكتاب الفصوص⁽²⁾.

ومن المفسرين الجزائريين الذي سلكوا هذا المسلك في التفسير⁽³⁾ - أي الصوفي النظري -: العفيف التلمساني⁽¹⁾ له شرح الفاتحة وشرح كتاب الفصوص لابن عربي.

(1) التفسير والمفسرون للذهبي: 257/2.

(2) التفسير والمفسرون للذهبي: 260/2.

(3) ذكر ذلك د. طهوني في التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا: 512/2.

وكذلك سلكه الأمير عبد القادر الجزائري⁽²⁾، حيث لم يترك لنا تفسيراً مكتوباً لكنه كان يلقي دروس التفسير أثناء راحته وأمام جنوده، وكان يختار آيات الجهاد والصبر ووصف معارك وحياة الرسول، وقد استمر على ذلك في سجن أمبواز بفرنسا ثم في بلاد الشام⁽³⁾.

كما له تفسير سورة إذا الشمس كورت⁽⁴⁾.

كما تناول في كتابه المواقف تفسير عدد من الآيات، حيث كان كل موقف من مواقفه يبدأ بآية ذات معنى توحيدي أو صوفي، ثم يأخذ في شرح الآية شرحاً صوفياً يتغلب عليه الفكر الباطني الذي يعبر عنه بالأسرار والغيبية عن الشهود⁽⁵⁾.

قال في مقدمة كتاب المواقف: "... هذه نفثات روحية وإلقاءات سبوحية بعلوم وهيبية وأسرار غيبية من وراء طول العقول وطواهر النقول، خارجة عن أنواع الاكتساب والنظر في الكتاب، قيدتها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا إذا لم يصلوا إلى اقتطاف أثمارها، تركوها في زوايا أماكنها إلى أن يبلغوا أشدهم ويستخرجوا كنزهم، وما قيدتها لمن يقول هذا إفك قديم وأساطير الأولين..."⁽⁶⁾.

وقال في الموقف الأول: "... إن الله قد عودني أنه مهما أراد أن يأمرني أو ينهاني أو يشريني أو يحذرني أو يعلمني علماً... إلأى وأأخذني مني مع بقاء الرسم ثم يلقي إليّ ما أراد بإشارة آية كريمة من القرآن ثم يردني إليّ فأرجع بالآية قرير العين ملآن اليدين، ثم يلهمني ما أراد بالآية..."، ثم يقول: "وأتلقي الآية من غير حرف ولا صوت ولا جهة، وقد تلقيت والمنة لله تعالى نحو النصف من القرآن بهذه الطريقة، وأرجو من كرم الله تعالى أن لا أموت حتى استظهر القرآن كله، فأنا بفضل الله محفوظ الوارد في المصادر والموارد، ليس للسلطان علي سلطان"، هذا يعني أنه كان يتلقى القرآن وحياً وإلهاماً أثناء غياب روحه وبقاء رسمه في لحظات معينة... والآية التي بدأ بها الموقف الأول هي قوله تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة} [الأحزاب: 21]⁽⁷⁾.

(1) سليمان بن علي العابدي الكومي عفيف الدين أبو الربيع التلمساني (610 – 690 هـ)، صوفي شاعر، وكان يتصوف ويتكلم على اصطلاح القوم يتبع طريقة ابن عربي في أقواله وأفعاله. له: شرح الفاتحة، وشرح مواقف النفزي، وشرح الفصوص لابن عربي وغير ذلك. الأعلام للزركلي: 130/3، ومعجم المؤلفين لكحالة: 794/1

(2) عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الأمير الجزائري (1243 – 1300 هـ). ترجمته في: معجم أعلام الجزائر لعادل نويهض: ص342، وحياة الأمير عبد القادر: شارل هنري تشرشل، ترجمة: د. أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974م.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله: 9/7.

(4) تاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله: 15/7.

(5) تاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله: 117/7.

(6) تاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله: 117/7.

(7) تاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله: 120/7.

ومن أمثلة ما ذكره في كتابه المواقف:

قال في الموقف 222: " قال تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم} [محمد: 47] قال في الموقف 222: " قال تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى بكشف ما آمنوا به وإظهار أسرار ما عملوا من الطاعات كما قال: {واتقوا الله ويعلمكم الله} [البقرة: 282]. وفي الخبر: "من عمل بما علم أورثه الله علم ما لا يعلم". فالذين يعلمهم الله إياه إذا عملوا بما علموا هو كشف سر ما عملوا به، فليس عى المكلف إلا الإيمان، والعمل بالوارد من التكاليف فعلا وترگا، والوقوف عند الحدود مع اعتقاد حقيقة ذلك كله جزما وعدم التعرض للكيفيات والتأويلات. والحق تعالى يكشف للمؤمن العامل عن بواطن الأمور وحقائق الأشياء، فيرفعه من مرتبة الإيمان الذي هو تصديق المخبر فيما أخبر به وهو علم اليقين إلى عين اليقين وحق اليقين، فيصير ما كان إيماناً مشاهدة وعياناً، وهذه هي زيادة الهدى، وهي المعبر عنها بزيادة الإيمان في غير ما آية وحديث⁽¹⁾

وقال في الموقف 295: عند قوله تعالى: {إنهم يرونه بعيدا زراه قريباً} [المعارج: 6-7]: " ... ونحن بحمد الله في الثلث الآخر من هذه الليلة التي العالم نائم فيها، ولما كان تجلّي الحق في الثلث الآخر من الليل وكان تجلّيه يعطي الفوائد والعلوم والمعارف التامة على أكمل وجوهها لأنها عن تجلّ أقرب، لأنه تجلّ في السماء الدنيا فكانت علم آخر هذه الأمة أتم من علم وسطها وأولها بعد موت رسول الله '⁽²⁾. وكتاب المواقف كله هكذا مملوء بهذه التفسيرات والتأويلات الإشارية الصوفية المنافية للعقيدة الإسلامية الصحيحة التي كان عليها محمد ' وصحبه الكرام رضي الله عنهم، بل أغلبها ترمي وتدل على وحدة الوجود التي رسخت في ذهن الشيخ وتأثر بها عن شيخه ابن عربي صاحب الفتوحات المكية⁽³⁾.

ب- تفسير صوفي فيضي أو إشاري:

التفسير الفيضي أو الإشاري هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة⁽⁴⁾. وهو يركز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجع العبارات هذه الإشارات القدسية، وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية،

(1) المواقف للأمر عبد القادر الجزائري: 490/2-491.

(2) المواقف للأمر عبد القادر الجزائري: 919/2.

(3) ومن أمثلة ذلك في كتابه المواقف راجع مثلاً: الموقف 248 الجزء 2 من ص 565 إلى ص 743، وتأمل عبارته

الفلسفية الصوفية التي ينزه عنها البارئ جل وعلا.

(4) التفسير والمفسرون للذهبي: 261/2.

ويرى الصوفي -الإشاري- أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويُراد منها أولاً وقبل كل شيء، وذلك هو المعنى الظاهر الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره ⁽¹⁾.

والذي ينكر على الصوفية أصحاب الإشارة تفسيرهم وفهمهم لباطن القرآن بحسب أهوائهم، بل أنهم أحياناً يفسرون القرآن ويفهمونه بتفسيرات وأفهام لا يمكن أن يقبله العقل أو يرضي بها الشرع ⁽²⁾. ولقد اشترط العلماء عدة شروط لقبول هذا التفسير نوجزها فيما يلي:

- 1- ألا يتنافى وظاهر النظم القرآني.
- 2- أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.
- 3- ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.
- 4- أن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم.
- 5- ألا يدعى أن التفسير الإشاري هو المراد وحده دون الظاهر، بل لابد من الاعتراف والتسليم بالمعنى الظاهر أولاً.

فإذا توفرت هذه الشروط، وليس للتفسير ما ينافيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية، جاز الأخذ به أو تركه، لأنه من قبيل الوجدانيات، والوجدانيات لا تقوم على دليل نظري، وإنما هو أمر يبعث على تنمية المشاعر وتحصيل مكارم الأخلاق، فيجده الصوفي من نفسه ويسره بينه وبين ربه، فله أن يأخذ به أو يعمل بمقتضاه دون أن يلزم به أحداً من الناس ⁽³⁾.

ولعل من الذين سلكوا هذا المسلك في التفسير من الجزائريين الشيخ أحمد التجاني شيخ الطريقة التجانية ⁽⁴⁾ حيث ينسب إليه عدة مقالات وتأويلات تنحو هذا النحو، بالإضافة إلى نسبتهم له عدة كرامات وأساطير ومنامات تتناسب مع هذا التفسير.

وكذلك الشيخ أحمد مصطفى العلاوي الشهير بابن عليوة في تفسيره البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور، و" هو تفسير نادر رائع المبني فسّر فيه القرآن الكريم أربع تفسيرات تتراوح من التفسير الحرفي وحتى الروحي الصرف ولكن لم يتجاوز هذا التفسير الآية (40) من سورة البقرة، لأن المنية عاجلت الشيخ العلاوي أثناء تأليفه وهو منشور" ⁽⁵⁾، وكذلك في تفسير "لباب العلم في تفسير سورة النجم"، و"ومفتاح علوم

(1) انظر: التفسير والمفسرون للذهبي: 261/2.

(2) انظر: التفسير والمفسرون للذهبي: 264/2 وما بعدها.

(3) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر لفهد الرومي: 2/ 374.

(4) أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد الشريف أبو العباس التجاني (1150-1230هـ). ترجمته في: معجم المفسرين لنويهض: 764/2 ، ومعجم أعلام الجزائر لنويهض: ص 62 ، وشجرة النور الزكية لمخلوف: 378/1.

(5) راجع موقع التصوف الخاص بالشيخ والطريقة العلاوية.

السر في تفسير سورة والعصر" الذي تم فيه تفسير سورة العصر تفسيراً صوفياً ممتازاً أضاف إليه فهماً جديداً⁽¹⁾.

و من الذين سلكوا هذا المسلك في التفسير⁽²⁾ من المفسرين الجزائريين أبو العباس أحمد بن علي البوني القرشي⁽³⁾ له تحفة الأحياب ومنية الأنجاب في أسرار بسم الله و فاتحة الكتاب، وشمس المعارف وغيرها.

رابعاً: الاتجاه الشيعي الباطني

ونعني بها تلك المجموعة من المفسرين الذي سلكوا الاتجاه الباطني في التفسير: وهو التأويل الذي يعتمد على أن للقرآن ظاهراً وباطناً، والباطن هو المقصود دون الظاهر⁽⁴⁾.

وبهذا الاستبطان للقرآن وللحديث استطاع الشيعة الباطنية (الإسماعيلية)⁽⁵⁾ أن يخدموا أغراضهم السياسية والدينية، وقد سموا لذلك بالباطنية، وجعلوا التأويل من اختصاص أئمتهم، واعتبروا الرسول ' صاحب التنزيل، وعلياً رضي الله عنه صاحب التأويل، أي أن القرآن أنزل على محمد ' بلفظه ومعناه الظاهر للناس، أما أسرار التأويلية الباطنية فقد خصّها بها علياً والأئمة من بعده⁽⁶⁾.

وحرصاً منهم على أن تكون دعواهم في تأويل القرآن مقبولة لدى من يستخفونه.. قالوا: " إن الأئمة هم الذين أودعهم الله سره المكنون ودينه الخزون وكشف لهم بواطن هذه الظواهر وأسرار هذه الأمثلة، وإن الرشد والنجاة من الضلال بالرجوع إلى القرآن وأهل البيت ولذلك قال عليه السلام - لما قيل: ومن أين يُعرف الحق بعدك؟ -: " ألم أترك فيكم القرآن وعترتي؟" وأراد به أعقابهم فهم الذين يطلعون على معاني القرآن " ⁽⁷⁾.

ف رأى المؤسسون لمبادئ الباطنية أنه لا طاقة لهم بالوقوف في وجه المسلمين صراحة وجهاراً فاحتالوا على الوصول إلى مآربهم بشتى الحيل، واندسوا بين المسلمين باسم الحذب على الإسلام، وتلفعوا بالتشيع والموالاة

(1) وكلاهما موجود في موقع التصوف على شبكة المعلومات.

(2) ذكر ذلك د. طرهوني في التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا: 512/2.

(3) أحمد بن علي بن يوسف تقي الدين أبو العباس البوني القرشي (ت622هـ)، صوفي، من أشهر المصنفين العرب في العلوم الخفية وعلم الحروف، من أهل بونة - عنابة - بشري الجزائر، له كتب كثيرة. معجم المفسرين لنويهض: 760/2، ومعجم أعلام الجزائر لنويهض: 314/1، وتعريف الخلف للحفناوي: 522/2.

(4) التفسير والمفسرون للذهبي: 174/2.

(5) انظر: المغرب العربي تاريخه وثقافته لبونار: ص 114-115.

(6) التفسير واتجاهاته بإفريقية لبلعيد: ص 447.

(7) التفسير والمفسرون للذهبي: 176/2.

لأهل البيت، وتظاهروا بالورع الكاذب، وجعلوا ذلك كله ستارا لما يريدون أن يبدؤوه بين المسلمين من بذور الفساد والاضطراب في العقيدة والسياسة.

ومن المخرن أن يدعي هؤلاء الملاحدة الانتماء إلى أهل بيت النبوة، ويصلون أنسابهم بأنسابهم عن طريق آباء وأئمة مستورين فيلقى هذا الادعاء رواجًا وقبولا من أناس ضعفاء أغمار غرهم التباكي على آل البيت والتحنن عليهم⁽¹⁾

ومن أهم أصول هذه الفرقة الباطنية: التشكيك في أصول الدين وأركان الشريعة والكذب والتدليس على الناس، بل يطلون الشريعة جملة وتفصيلا، ويعتقدون أن لها بواطن غير هذه الظواهر، ويستحلون الحرمات، واعتقادهم في الله والأنبياء من أبطل الباطل⁽²⁾

أما عن إنتاج هذه الفرقة الباطنية في تفسير القرآن الكريم فهو قليل رغم أنهم اتخذوا من تأويل القرآن بابا للوصول إلى أغراضهم، فلم يوجد لهم كتب مستقلة في التفسير ولم نسمع أن واحدا منهم كتب تفسيرًا جامعًا للقرآن كله سورة سورة وآية آية، وكل ما وجد لهم في تفسير القرآن الكريم إنما هو نصوص متفرقة في بطون الكتب⁽³⁾.

وقد ظهر هذا الاتجاه بإفريقية بدخول الشيعة الإسماعيلية الباطنية إليها في نهاية القرن الثالث، لما انتصبوا بالقيروان وأخضعوا البلاد إلى سلطتهم، ويمثل هذا الاتجاه بإفريقية النعمان بن حيون (ت 363هـ) أحد كبار مفكري الشيعة الإسماعيلية الباطنية ومن أشهر أعلامهم في التفسير والعقيدة والفقه في القرن الرابع الهجري⁽⁴⁾. أما من سلك هذا الاتجاه من المفسرين الجزائريين العفيف التلمساني كما ذكر د. طرهوني في التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا⁽⁵⁾.

خامسًا: الاتجاه الإصلاحي

ونعني بها تلك المدرسة التي قامت على أساس إصلاح أوضاع المجتمع الإسلامي الذي يعاني التدهور والتخلف والجهل نتيجة الاستعمار، ونتيجة ابتعاده وهجره لمعالم دين الإسلام والقرآن الكريم.

(1) التفسير والمفسرون للذهبي: 175/2.

(2) راجع في ذلك ما ذكره الأستاذ حسين الذهبي في التفسير والمفسرون: 175/2-176، ود. طرهوني في التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا: 823/2.

(3) التفسير والمفسرون للذهبي: 177/2.

(4) التفسير واتجاهاته بإفريقية لبلعيد: ص 448، وانظر: التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا لطرهوني: 823/2 وما بعدها.

(5) انظر: 512/2.

فرأى أصحاب هذه المدرسة أنه لا حل لهذه المعضلة ولا صلاح ولا فلاح إلا بعودة هذا المجتمع إلى دينه وعودته إلى كتاب ربه جل وجل، كما رأوا أن العودة إلى القرآن لا تكون إلا بفهمه فهما صحيحا كما فهمه سلف هذه الأمة ومتقدميها.

ولذلك كانت أهداف هذه المدرسة تتمحور حول:

- إشعار الناس بأن العودة إلى القرآن هو الحل الوحيد المخلص لها من هذه الأوضاع المزرية التي تعيشها.
- العمل على إيجاد طريقة سليمة متوافقة مع الواقع الذي يعيشه المسلم ليفهم القرآن كما فهمه السلف ويطبقه كتطبيقهم.
- العمل على تربية الأجيال على القرآن وحملهم على العمل به وتطبيقهم له في حياتهم اليومية حتى يضمّنوا مستقبلا زاهرا كمستقبل سلفهم.

ورجال هذه المدرسة وأعلامها في هذا الوطن الغالي أغلبهم رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ورأبدها هو مؤسس هذه الجمعية الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله وتفسيره " مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير " الذي جسّد فيه معالم هذا الاتجاه وأصول هذه المدرسة التفسيرية العريقة⁽¹⁾، وواصل مسيرته من بعد وفاته بقية زملائه كالبشير الإبراهيمي والعربي التبسي ومبارك الملي رحمة الله جميعا.

هذه هي أهم اتجاهات التفسير ومدارسه في الجزائر، ونخلص مما سبق:

1- أنه قد ظهر في هذه البلاد المحروسة جميع اتجاهات التفسير تقريبا، ولعل مردّ ذلك -حسب رأيي- راجع إلى عاملين أساسيين هما :

أولاً- طول الفترة الزمنية التي شملها البحث وهي الممتدة من القرن الثاني للهجرة إلى عصرنا الحاضر، أي: من بداية ظهور أول تفسير مكتوب وصل إلينا وهو تفسير هود بن محكم الإباضي إلى عصرنا الحاضر، وهي حوالي أربعة عشر قرناً متوالية.

ثانياً- اتساع مساحة هذه البلاد وشساعتها والتي شملت جميع مناطق القطر الجزائري الإسلامي كله تقريبا، من بونة (عنابة) وحواضرها شرقا إلى تلمسان وما جاورها غرباً، ومن بجاية والجزائر العاصمة شمالاً إلى بلاد ميزاب وصحراء توات جنوباً، حيث تعاقبت عليها عدة حضارات ودويلات متنوعة مما نتج عنه تنوعا فكريا مختلفا عبر العصور.

3- أن نتاج العلماء الجزائريين في التفسير متنوع بحسب مذاهبهم وتوجهاتهم العقديّة والفكرية.

⁽¹⁾ انظر: خصائص التفسير الباديسي للبشير الإبراهيمي: تفسير ابن باديس مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير: جمع وترتيب/توفيق شاهين ومحمد الصالح رمضان: ص16، و التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا لطرهوني: 723/2.

- 4- أن القيمة العلمية للتفسير في الجزائر جعلته ينافس تفاسير المشاركة ويزاحمهم.
- 2- أن صلة الجزائريين واهتمامهم بالقرآن الكريم وتفسيره صلة قديمة وراسخة منذ الفتح الإسلامي إلى عصرنا الحاضر.
- وأخيرا ننوّه بأنه ينبغي الاعتناء بتراث العلماء الجزائريين في ميدان التفسير وعلوم القرآن، وذلك بإنشاء مراكز وفرق بحث أكاديمية لخدمة ودراسة إسهامات علماء الجزائر في هذا الميدان الرحب.